الوطن والقوم أولاً
أم الدين والقيم ؟

الأستاذ عصام العطار

(١-٢)

هل الوطنُ والقومُ أولاً ، أم الدينُ والقِيَمُ العليا : قِيَمُ الحقِّ والعدل والإحسان والخير .. ؟

أيُّ ذلك أحقُّ بالتقديم ، وأيُّ ذلك أحقُّ بالتأخير ؟

وَرَدَني هذا السؤال من أكثر من سائل ، وأكثر من مكان

ولكن لماذا يُطْرح هذا السؤال ؟

الوطنُ والقوم ، والدينُ والقيمُ العليا ، من طبيعتين مختلفتين تتكاملان في الغالب ولا تتناقضان ، ولا يَستغني عن أيٍّ منهما الإنسان

فقد يكون الإنسان فرنسيّاً أو ألمانيّاً ، آريّاً أو ساميّاً ، عربيّاً أو عَجَمِيّاً .. وهو في ذات الوقت نصرانيٌّ أو يهوديٌّ أو مسلم ، أو يدين بغير ذلك من الأديان والنِّحَلِ والمذاهب

ولا وجود لوطن دون عقائدَ وقيم

ولا قيمة لوطن دون عقائدَ وقيم

وبالعقائد والقيم ترتفع الأوطان أو تهبط ، وتُذَمُّ أو تُحمد ، وتَنفعُ أو تَضر

والوطن الذي يتجرّدُ من العقائد السامية والقيم العليا : قيم الحقِّ والعدلِ والإحسانِ

والرحمة والحرية وحقوق الإنسان ، أو يرفعُ نفسَه فوقها ، أو يقدّمُ نفسَه عليها .. لا يصلُ بأبنائه ، ولا بغيرهم من البشر ، إلى سعادةٍ وفلاحٍ وخير ، ولا يستأهلُ المحبة والاحترام ، ولا يستطيع أن يصل مع بقية الأوطان إلى التوافق والتعـــاون ، وإلى ما ينظِّمُ علاقات الدول بالدول ، والبشر بالبشر ، على أساس مَنْطِقِيّ عادل سليم ، يحمي الإنسانية والإنسان جميعاً ، حيثما كانوا من الأرض ، وحيثما كانوا من القوة والضعف ، والغنى والفقر ، واختلاف الدين واللغة والجنس واللون ، ويفتح لهم جميعاً أبواب الأمن والسلام والتعاون والتقدّم

التحدّي الكبير الآن في كل وطن من الأوطان ، بل في العالم كله : كيف تُرَتَّب الأمورُ محليّاً ودوليّاً بما يصون للناس عقائدهم وخصائصهم ، وحريّاتهم وحقـــوقَهم المشروعة ، ويتقدّمُ بهم في حدود القواسم المشتركة ، والحاجات المشتركة ، والمصالح المشتركة ، والواجبات المشتركة ، إلى أفضل وأعدل الدساتير والقوانين الواعية النافعة ، التي تحقق خيرَ الوطن والمواطنين ، وخيرَ الإنسانية جمعاء

والناسُ الذين خدموا أوطانهم ، وخدموا الإنسانية كلّها ، حسب اجتهاد كلٍّ منهم وطريقته ، هم أصحاب الأُفُقِ الإنسانيِّ الواسع الرفيع مع الأفُق الوطنيّ المحليّ

لقد شعر أكثر الروَّاد الكبار ، الذين يستحقّون الإعجاب والتقدير ، وما كلُّ رائدٍ في مجاله يستحقُّ الإعجاب والتقدير ، أنّهم بَشَر قبل انتسابهم إلى هذا البلـــد أو ذاك البلد ، وإلى هؤلاءِ القوم أو أولئك القوم ، وأنَّ ارتباطهم الأكبر والأوثق إنّما هو بالحق والعدل والقيم العليا ، فخدموا بذلك أوطانهم ، وخدموا العالم كلّه في وقت واحد

وأتذكّر هنا وأنا أخطّ هذه السطور كلماتٍ مُضيئةً وعتْها ذاكرتي في ماضيات أيامي لعدد من أعلام الغرب البارزين في الفكر والسياسة والأدب ، وأراها هنـــا الآن مناسبة لإهداء بعضها في خاتمة الكلام إلى الإخوة القراء

أتذكر – على سبيل المثال – كلمةَ " مونتسكيو Montesquieu " أحدِ أبرزِ

مفكري ما يُدْعى بـــ '' عصر التنوير '' ، ومُؤسّسي الدولة الدستورية القانونية الحديثة :

- « Je suis homme avant d´être Français »

– « أنا إنسان قبل أن أكون فرنسيّاً »

وكلمةَ '' هَايْنَرْ جايسْلَرْ Heiner Geißler '' الأمين العام السابق للحزب المسيحي الديمقراطي الألماني :

- « Christ sein, Demokrat sein, ist für viele, auch für mich, wichtiger als Deutscher zu sein »

« أنْ تكون نصرانيّاً ، أنْ تكون ديمقراطيّاً ، هو عند كثيرين ، وعندي أيضاً ، أعظمُ أهميةً من أن تكون ألمانيّاً »

وقولَ الشاعر الألمانيّ الكبير '' شيلّرْ Schiller '' :

- « Dort, wo das Recht ist, ist unser Vaterland »

– « هناك حيث يكون الحق والعدل يوجد وطننا »

وقولَه في جملة أبيات طويلة جميلة :

- « Festen Mut in schwerem leiden,
Hilfe, wo die Unschuld weint,
Ewigkeit geschwornen Eiden,
Wahrheit gegen Freund und Feind »

– « شجاعةٌ راسخةٌ في المعاناة الثقيلة العسيرة
مبادرةٌ بالنجدة حيثُ تبكي البراءةُ وتَسْتَصْرِخ

قَسَمٌ أَبَدِيٌّ أقسمناه :

أن نكونَ مع الحقِّ في مُواجَهَةِ الصديقِ والْعَدُوّ »

(٢-٢)

المسلم العالم بإسلامه ، العامل به ، يحبّ بفطرته ، وتعاليم دينه ، قومَه وبلدَه ، ويَعي مسؤوليته عن قومه وبلده ، ويقدِّمهما ، ويسعى في خيرهما ، ويخدمهما بجدٍّ وصدق وإخلاص ؛ ولكنه لا يعرف أبداً العصبية العمياء لقومٍ أو بلد ، وأهلٍ أو ولد ، إنّما ولاؤه قبل كل شيء ، وبعد كل شيء لما أمره الله أن يكون ولاؤه له ، وارتباطُه به ، من الحقّ والعدل والإحسان .. لا يفرق في ذلك بين قومٍ وقـــوم ، وواحد وواحد من الناس

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن سليمان ، عن جُبَيْر بْنِ مُطْعِـــمٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « **لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَصَبِيَّةً ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ** »

وقد سأل واثلةُ بنُ الأَسْقع رسول الله ﷺ :

– يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْعَصَبِيَّةُ ؟

قَالَ ﷺ :

– « **أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ** » رواه أبو داود

وروى أبو داود في سننه عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن مسعود عن أَبيه رضي الله عنهما قال :

– « **مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رَدَى ، فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ** » [١]

(١) ورد هذا الحديث موقوفاً ، وورد مسنداً إلى رسول الله ﷺ .

معناه أنه وقع في الإثم وهلك ، كالبعير الذي سقط في هوّة أو بئر فهو ينـــزع (أي يشدّ) بذنبه ، ولا يُقْدَرُ على خلاصه .

فأَحْبِبْ وطنَكَ ، وأحْبِبْ قومَكَ ما شِئتَ ؛ ولكن إيّاك أن تكون معهما في ظلم ، أو أن تعينهما على ظلم

سأل أبيُّ بن كعب النبيّ ﷺ :

– أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

– « **لاَ ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَنْصُرَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ** » رواه أحمد

ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال :

– « **خَيْرُكُمُ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ مَا لَمْ يَأْثَمْ** » رواه أبو داود

أي يدافع عنهم بالحق ، ولا يدافع عنهم في باطل وعدوان وظلم ، وإلاّ وقع في الإثم

وكما لا يتعصّب المسلم الْحَقُّ لوطنه بالباطل على سائر الأوطان ، ولقومه على سائر الأقوام ، لا يتعصب بالباطل لأخ قريب ، أو صديق عزيز ، أو لإنسان كائن من كان ، على من سواه من الناس ولو كانوا ألدَّ الأعداء

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

– « **انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**

فَقَالَ رَجُلٌ :

– يَا رَسُولَ اللَّه ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟

قَالَ :

– **تَحْجُزُهُ – أَوْ تَمْنَعُهُ – مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ** »

فلا يكفي أن تؤدِّيَ حقَّ الله ، وما أوجبَه اللهُ من العدل والإنصاف بعدم معونته ونصره ؛ وإنما عليك أيضاً أن تؤدّي له حقّه من الأخوّة والمحبّة والنصيحة ، بحجزه ومنعه من الظلم ؛ فالظلمُ شيء فظيع قبيح حقير في الدنيا ، والظلمُ « ظلمات يـــوم القيامة » .

وتَناصُرُ المسلمين ، وتعاونُهم فيما بينهم ، وتعاونهم مع غيرهم من النـــاس ، إنما يكون على العدل والخير ، وما يرضي الله من العمل الصالح ، ولا يكون أبداً على الإثم والعدوان :

﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢]

الإسلام عدل مطلق يستوي فيه الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والقـــويّ والضعيف ، والقريب والبعيد ، والمؤمن والكافر ، والصديق والعدوّ ، ومن تحبـــه أعظم الحبّ ، ومن تكرهه أشدّ الكراهية ..

- **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** [المائدة : ٨]

وقال :

- **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** [النساء : ١٣٥]

يعني يجب على المسلم الصادقِ الإسلام أن يؤثر الحقّ والعدل حتى على نفسه ،

ووالديه ، وأقرب الناس إليه

وأن يكون مع الحق والعدل ولو على نفسه ، ووالديه ، وأقرب الناس إليه ، لا يميل به عن الحق والعدل هوىً ، ولا يخرجه عنه ، أو يقف به دونه ، أيّ اعتبار

والله تعالى يخبرنا في كتابه العزيز أنه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، ووضع مـــا وضع من الموازين والمقاييس ، ليقوم الناس بالقسط :

﴿ ... **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد : ٢٥]

قال الإمام ابن القيم في كتابه : '' الطرق الحُكْميّة في السياسة الشرعية '' :

– « إنّ الله ﷻ أرسلَ رسلَه ، وأنزل كتبَه ، ليقومَ الناسُ بالقِسْط ، وهـــو العدل الذي قامت به الأرضُ والسماواتُ ؛ فإذا ظهرت أمارات العدل ، وأسفر وجهه بأيّ طريق كان ، فثمَّ شرعُ اللهِ ودينُه » .

❍ ❍ ❍

أنا أعلم أنّ الإسلام في مبادئه وقيمه وأحكامه شيء ، وأن المـــسلمين – أو كثيراً منهم – في واقعهم شيء آخر

ولكن يبقى أن هذه المبادئ والقيم والأحكام هي مَثَلُ المسلمين الأعلى ، الذي يحبونه ، ويقدّسونه ، ويتوقون إلى تحقيقه ، ويحاول كثير منهم أن يصلوا إليه بأنفسهم وواقعهم ، وأنّ من هؤلاء من وصل ، ومنهم من اقترب ، ومنهم من لا يزال في أوّل الطريق أو وسط الطريق

ولكننا نطمح دائماً إلى المزيد ، ونطمع دائماً بالمزيد ، ونؤمن بقدرتنا – بإذن الله وعونه وتوفيقه – على المزيد والمزيد